11 أيار 2006

رسالة الاب وليد موسى بمناسبة ذكرى تأسيس جامعة سيدة اللويزة

الانتماء بين العولمة والأصولية

أيها الأصدقاء

انه عيد الجامعة، ذكرى التأسيس، وقفة مع الله ومعكم، ومع نفسي. هذه الوقفة تستدعي بضعة أسئلة: هل العيد مجرّد تقليد؟ هل العيد مهرجان فرح، ينتهي في المساء، ونعود الى غرفنا الضيّقة؟ هل العيد لقاء لتبادل التهاني وفرصة للطلاّب واستراحة للأساتذة والموظفين؟

تعالوا معاً، نذهب أبعد من ذلك. تعالوا نحوّل الاسئلة الى بحث، يتعلّق بي شخصيّاً وبكم، وبالواقع الانساني والوطني، في مطلع هذا القرن الواحد والعشرين.

في هذا القرن، صراع يتخذ أشكالاً متعدّدة، إلاّ انه يقوم في الأساس على صدام بين العولمة والأصولية، وهذا الصدام يتمظهر أحياناً بصراع الحضارات أو بتفجيرات ارهابية أو بحروب، نعرف كيف تبدأ ولكنّنا لا نعرف كيف تنتهي.

لقد قدّمت لنا التكنولوجيا الحديثة، والتقدّم العلمي المعاصر، "هديّة" أطلق عليها البعض اسم **"العولمة"**، حيث تتفاعل الأوضاع، لتتجاوز الحدود الكيانية والجغرافية، فيبدو العالم كلّه، وطناً واحداً أو قرية صغيرة: قربت المسافات، زالت الفروقات، اختلطت الشعوب بعضها ببعض، انتشرت وسائل الاتصال، اتسعت آفاق المعرفة والمعلومات، فما يحصل في بلد بعيد أو في كوكب آخر، تتناقله وسائل الاعلام، في لحظات أو دقائق، الى حدّ أصبحنا نعيش هموم الآخرين ومشاكلهم وأوجاعهم. هذه "العولمة" استخدمها البعض، لغايات سياسية واقتصادية، فتحدّث البعض عن "الأمركة"، او عن الاستعمار الجديد، أو عن سيطرة رأس المال او الشركات الكبرى. ولهذا وقف البعض ضد "العولمة" صارخاً معترضاً، كما التزم بها آخرون واعتبروها الصيغة المفضّلة لبناء مستقبل زاهر وبعيدٍ عن الصراعات والخلافات والحروب.

في مواجهة هذه "العولمة" التي نعتها البعض بالمتوحّشة والظالمة، برزت **الأصولية**: أيّ العودة الى الأصول والامتناع عن الأخذ ببعض أساليب الحضارة والحداثة، خوفاً من الضياع والامّحاء. فبعض المؤمنين بالأصولية، عن وعي وادراك، يعتبرون أنّ التمسّك بالتراث والحفاظ على العادات والتقاليد والالتزام بما قدّمه التاريخ، هو أفضل من هذا الانفلاش الذي تقدّمه العولمة، والذي يمحو ملامح الهوية الأساسية.

وكما ظهرت "العولمة" أحياناً، بصورة تحمل كل معاني التسلّط والالتهام، وأحياناً الآحادية المتطرّفة، كذلك ظهرت الأصولية، أحياناً أخرى، بصورة من يستسلم لماضيه، رافضاً كل تقدّم او تطوّر، ملتزماً أصولاً، لم تعد، ربّما، تتوافق مع الحاضر، ولا تنسجم مع معطيات العصر.

هذا الصراع بين العولمة والأصولية، يتخذ اليوم، أشكالاً مأساوية: الإرهاب، الاحتلال، إلغاء الآخر، التسلّط، التجويع، التخلّف...

كما ان هذا الصراع انعكس على الهويّة، حتى ان البعض أصبح يظنّ أن الهوية مشكلة، لأنّها تتمسّك بالماضي على حساب المستقبل. وأصدر أمين معلوف كتابه: الهويات القاتلة، متحدّثاً، بعمق، عن مأزق الهوية التي، بدلاً من أن يتزيّن بها الانسان، أصبحت سبباً للانقسام والقتل.

اليوم، في العالم كلّه، نعيش هذا الصدام، وربّما تتجلّى بعض مظاهره، في المنطقة وفي لبنان. فما هو دورنا كجامعات؟ ما هو دورنا كمسؤولين تربويين؟ وبالتالي، ما هو دورنا في جامعة سيّدة اللويزة، بصورة خاصّة؟

أيها الأصدقاء

يوم بدأت جامعة سيّدة اللويزة مسيرة ولادتها مع سيادة أبينا المطران بشارة الراعي، وفي رحم الرهبانية المارونية المريمية، منذ أكثر من ربع قرن، لم تكن شخصيتها ضبابية ودون ملامح، فهي تكوّنت من تراكمات تربوية وروحانية ووطنية متعدّدة، وهذا ما ظهر في مقدّمة الأهداف التي صاغتها الجامعة لنفسها، اذ وردت العبارة الآتية:

انطلاقاً من تاريخ الرهبانية المارونية المريمية وتراثها ورسالتها الروحانية، وايماناً منها، بلبنان واحد، نلتقي على أرضه، مجموعات من الناس، ذات انتماءات دينية مختلفة، مما يجعله نموذجاً لحضارة غنيّة متنوّعة، ذات تطلّعات انسانية عالمية.

وتأكيداً منها على دور التربية في تنشئة المواطن وتحصينه ضدّ المفاسد والتعصّب والتقوقع، تعتمد جامعة سيّدة اللويزة الأهداف التي تسهم في اعداد انسان حرّ، مثقف، مؤمن، خلاق...

انني أرى في هذه الأسطر الأفكار الآتية:

- أرى أصولية واضحة في الحديث عن تاريخ الرهبانية وعن تراثها.
- أرى هوية بارزة في الحديث عن الايمان بلبنان واحد تحيا على أرضه مجموعات دينية متعدّدة ومتنوّعة، بعيداً عن التعصّب والتقوقع.
- أرى عولمة في الحديث عن تطلّعات انسانية عالمية.

انّ التوفيق بين هذه الأفكار الثلاثة هو ما يجعلني أضع عنواناً لرسالة الجامعة اليوم، وهو الانتماء بين العولمة والأصولية، ويعني ذلك ايجاد جسر لقاء بين العولمة التي تفترس الهوية، وبين الأصولية التي تلغي كل شيء آخر غير الهوية، وذلك من خلال التركيز على الانتماء: فمواجهة تحديات العولمة لا تكون بالحفاظ على بقايا تاريخية تعيق النمو وتشلّ ارادة البناء والتطوّر، انما تكون بالانتماء الذي يوجب علينا نقداً ذاتياً ومكاشفة تصل الى حدّ الاعتراف، وصدقاً لا يحتمل التحايل والخبث.

ان محور البحث هو في طرح الأسئلة الآتية:

1) السؤال الأوّل أطرحه على نفسي وعلى اخوتي الرهبان: هل نحن، بالفعل، ننتمي الى الرهبانية المارونية المريمية، بتاريخها وتراثها ورسالتها المتجسّدة أعمالاً وتضحيات منذ أكثر من ثلاثماية سنة؟ ما مدى ايماننا وصدقنا في وعي هذا الانتماء وفي ممارسته؟ وما علاقتنا بهذه الجامعة؟ وهل نحن نملك أم نرعى؟ وهل نحن في قلبها أم هي في قلبنا؟

2) هل نحن كأساتذة وكموظفين، وكعاملين، بصورة عامّة، ننتمي بالفعل وبالقول وبالكتابة والبحث الى جامعة سيّدة اللويزة؟ كيف يبرز هذا الانتماء؟ وما هي مظاهره؟ وما هي الروابط الفعلية بين الانسان العامل وبين هذه الجامعة؟ ومرّة ثانية: هل نحن، الأساتذة والموظفين، في قلبها أم هي في قلبنا؟
3) هل نحن كطلاّب وطالبات، وغداً كخرّيجين وخرّيجات، نحمل وشم هذه الجامعة وعلاماتها الفارقة، ونفخر بها ونعتزّ؟ أم انّ هذه الجامعة لا ملامح لها، ولا شيء يميّزها عن شقيقاتها، وأقصى طموحاتنا أن ننال الشهادة وننتقل الى سوق العمل؟ ومرّة ثالثة: هل نحن، الطلاّب والخرّيجين، في قلبها أم هي في قلبنا؟

هذه الأسئلة جميعها تدور حول الانتماء، فإن سقط هذا الانتماء، كانت العولمة او الأصولية. والصدق يدفعني الى القول: انّ بعضنا معولمون، وبعضنا أصوليون، وأقلنا أصحاب انتماء.

- **<u>الرهبان:</u>**
فبعض الرهبان معولمون، <u>الراهب</u> الذي لا روابط له، بالأرض او بالدير، أو بتاريخ مجموعته، والذي لا يشعر انه جزء من هذه المؤسسة التربوية، ولا جذور له فيها، لا انتماء له. انه راهب يصلي ويحب ويؤمن وينظر الى الأعلى، ولكنه تجاوز الأرض الى السماء، وهذا حق كبير له؛ انه معولم، بمعنى من المعاني، وهنيئاً له. وبعض الرهبان أصوليون، يتمسّكون بالتقاليد والأنظمة القديمة، يمارسون دورهم، وكأنّهم أبناء عصر آخر، لا ينتسبون الى جامعة الألف الثالث، ولا انفتاح عندهم على المعطيات الجديدة.
بين هؤلاء المعولمين وهؤلاء الأصوليين، نحن بحاجة الى رهبان يجعلون من جامعتهم أساساً ومنطلقاً للعولمة. فلا جذور تنبت في السماء، انّما في هذه الأرض بكل ما تحمل من حقائق تاريخية وروحانية.
صلاتي أن أكون، <u>أنا واخوتي الرهبان</u>، نتمتّع بهذا الانتماء، الذي يتجاوز المرحلة الزمنية،
والأشخاص العاملين، والأحداث المختلفة، والمناصب والمهام، ليصبح جزءاً من شخصيتنا الرهبانية التي يتوارى فيها الفرد، لتبقى المؤسسة والرهبانية. نحن، اليوم، هنا، غداً في مكان آخر، ولكن انتماءنا لن يتبدّل، وهذا يحتاج الى الكثير من التضحية والتنكّر للأنانية الغاشمة.

- **<u>الأساتذة والموظفون:</u>**
وبعض <u>أساتذتنا وموظفينا والعاملين معنا</u>، معولمون أو أصوليون: معولمون بمعنى أنهم يضعون أهدافاً بعيدة، ويسعون اليها، وهذا شأن طبيعي انساني. همّهم، في هذا الزمن، المال، المركز، المجد، وهذا أيضاً مشروع ومفهوم؛ كيف يحقّقون ذلك؟ لا فرق، المهم الوصول.

وبعضهم أصوليون، بمعنى أنّهم تقليديون، متمسّكون بالتراث وبقايا التاريخ، وهذا ما ينعكس على نظرتهم الى زملائهم وطلاّبهم، الى حدّ الفئوية أحياناً او التعصّب الطائفي أو السياسي. وهذا طبيعي عند البعض، ولكنه لا يتّفق مع ما نسعى اليه من انتماء:
ولهذا فندائي الى هؤلاء المعولمين أو الأصوليين، هو في الانتماء الى جامعة – جامعة، لا تميّز، ولا تفرّق، وهي، في الأساس، ذات جذور مسيحية، وذات هويّة لبنانية، وذات رسالة أخلاقية حضارية، ولكنها قادرة أن تحافظ على جذورها في الأرض وعلى أغصانها في الفضاء، وعلى تنوّع الجالسين في ظلالها وعلى مقاعدها.
انتماؤنا الى هذه الجامعة، كأساتذة وكموظّفين، هو في احساسنا أننا آباء لها وأبناء، ولسنا عابري سبيل. البعض يمرّ في الجامعة، ويذهب، ولكن البعض يمرّ ويستقرّ، كلّنا نمرّ، ولكن من منّا يُبقي له أثراً أو اسماً أو ابداعاً معيّناً؟ روح الابتكار والخلق، نزعة التطوير والتجديد، فرح العطاء الذي لا ينتظر بديلاً أو مجداً زائفاً، كل ذلك هو من أسس الانتماء الى هذه الجامعة. صلاتي ان يكثر هؤلاء المنتمون الذين يجعلون الجامعة بيتاً لهم، والذين تجعلهم الجامعة نجوماً لها، وكما هي الجامعة أبواب مفتوحة لكل الناس، تكون قلوبهم مفتوحة لكل الطلاّب ولكلّ الآراء والأفكار، دون آحادية عمياء أو أصولية صمّاء.

- **الطلاّب والخرّيجون:**

ويبقى الطلاّب والخرّيجون، وهم، نشأة وعمراً، أبناء وبنات العصر، بكل ما يحمل هذا العصر من تطلعات وامتدادات لا تقف عند حدود.
هؤلاء الطلاّب معولمون، في معظمهم، لباساً وسلوكاً وأساليب تعلّم ووسائل تواصل، كما ان في نفوسهم، نزعة الى التمرّد والرفض وكسر كل التقاليد والعادات، وهم، في أحلامهم، تضيق بهم حدود العائلة والوطن، فإذا بهم يتطلّعون الى الأبعد. وكأنّ جلودهم، كما اوطانهم، لا تسعهم، فيحاولون الإفلات منها والتحرّر.
مقابل هؤلاء، قلّة من الطلاّب، تتمسّك بالقديم، ولأسباب دينية أو اجتماعية أو اقتصادية، نراهم، أيضاً في لباسهم وسلوكهم، يحافظون على الأصول التقليدية، ويعبّرون عن رفضهم لكل جديد، واستنكارهم لأساليب التحرّر الذي يعبّرون عنه بأنه فوضوية وخلاعة وفساد.
هذان النوعان من الطلاّب ليسوا انتاج الجامعة، وليسوا، بمعنى من المعاني، يحملون اسم الجامعة وهويتها.
سعينا الكبير هو أن نجعل هؤلاء الطلاّب أكثر انتماءً الى الجامعة، وأكثر وعياً لمدى ارتباطهم بأرضهم وأهلهم ومجتمعهم وجامعتهم.
ولكن هذا السعي صعب ومحفوف بالعوائق: هم يفرّون من كل قيد، ولهذا يصبح من الضروري، أن تغيّر الجامعة أساليب عملها، لتكسب محبّة هؤلاء الطلاّب، ولتزرع فرح الحياة في نفوسهم.
دعونا ننتمِ اليهم، فينتمون الينا، دعوا الجامعة تحتضنهم، دون النظر الى هوياتهم الطائفية او الاجتماعية او المناطقية او السياسية، ليشعروا بالدفء والعاطفة. هذه العلاقة العضوية بين الطلاّب والجامعة، هي أساس كل عمل أكاديمي او وطني او تربوي.

ولا يقف ذلك، عند حدود سنوات ثلاث أو أربع، يقضيها الطالب في الجامعة، بل يجب أن يمتدّ ذلك، الى ما بعد التخرّج، وهذا يستوجب صياغة نظام جديد لرابطة الخرّيجين بحيث يفخر الطالب بجامعته ويسعى الى تقدّمها، وبهذا يكون الطالب أكثر اعتزازاً بشهادته وبالجامعة التي يحمل اسمها.

أيها الأصدقاء

بين آحادية تريد إلغاء الآخر، وبين عولمة تمحو العلامات الفارقة، اختيارنا هو الانتماء الذي لا يلغي الهوية، كما انه لا يجعلها إلهاً ننحني أمامه، ونقدّسه. وبقدر ما يكون الانتماء كريماً، ونابعاً من قرار مسؤول، بقدر ما يكون عميقاً وعضوياً.

وهنا لا بدّ لي من توضيح واتفاق على المصطلحات: الهوية هي غير الانتماء، يمكنك أن تحمل هوية لبنانية ويكون انتماؤك سورياً او أميركياً أو فرنسياً. يمكنك أن تحمل هويّة عائلتك، ولكنّك تحيا خارج كل القيود العائلية والقبلية، فيما الانتماء هو انتماء، خارج إطار المجتمع الأهلي، الى المجتمع المدني بكل تطلّعاته وآفاقه المفتوحة. وهو خيار حرّ، فيما الهويّة هي قرار مفروض أو مقدّر أو بديهي طبيعي.

دورنا، في جامعتنا، أيها الأصدقاء، هو في كيفية تحقيق هذا الهدف، وزرع هذا الانتماء، واخراج نفوسنا وطلاّبنا من نفق العولمة والأصولية. لن يكون ذلك بالوعظ والإرشاد، ولن يكون بإلقاء العبء على الغير، أو توجيه الكرة الى ملعبه، بل، على العكس، فإنّ ذلك، يبدأ، كما أسلفت، بالنقد الذاتي البنّاء: ليلتفت كلّ منّا الى نفسه، بدءًا برئيس الجامعة: هل أنا بالفعل، أنتمي الى هذه الجامعة، وهل أعمل، من خلال قدراتي وقيادتي، على جعل الآخرين ينتمون اليها؟ وهل أنا، كأستاذ أو كموظّف، أو كطالب، أعي معنى هذا الانتماء؟

انني اذ أطرح هذا الموضوع، أعلم انني سأحرّك "عشّ دبابير" وانني سأصاب ببعض الوجع، ولكنّني مؤمن بضرورة كشف الأقنعة وإزالة السواتر وإظهار الحقائق. لا مستقبل لجامعة أو لمؤسسة تربوية أو لهوية، إلاّ في حال التأكيد على هذا الانتماء الانساني او الاجتماعي. تحت عنوان الحداثة، ألغينا التراث، وتحت عنوان التراث، ألغينا الحداثة. وتحت عنوان العولمة، فقدنا الهوية، وتحت عنوان الهوية، شتمنا العولمة، هذا كلّه لا ينفع، بل، على العكس، يوصلنا الى ما نحن عليه اليوم في العالم، من حروب ودمار وتفجير وخراب.

أنا، لا أطرح الموضوع، لتغيير العالم، أو لأكبّر الحجر، او لإصلاح هذا العصر، انما اطرحه، بحسب المثل اللبناني الشائع: على قدّ بساطك، مدّ اجريك...

همّي، اليوم، جامعتي وطلاّبي، وانطلاقاً من ذلك، يكون الإصلاح، ويكون التطوير؛ نتّكل على الله؟ نعم... ولكنّ لا يغيّر الله فينا شيئاً، إن لم نغيّر ما بأنفسنا.

آمل في العيد المقبل، أن تحقق جامعتنا، بوجودكم وحضوركم ونشاطكم، أيها الأساتذة والموظفون والطلاّب، قفزة نوعية تتجسّد بموضوع الانتماء. وأنا مؤمن بذلك ومتفائل.

كذلك، أرجو أيها الزملاء والمسؤولون، أن تكونوا شهوداً، لعلّنا، بتعاوننا الدائم، وبحوارنا الصادق المخلص، نصل الى إحداث بعض التغيير في سلوكنا الوطني وفي عقلية العاملين في الشأن الوطني. واننا، بالمحبّة والوعي، على كل شيء قادرون.

وكـلّ عيـد وأنتـم بخيـر.